العلم ومجالسه

أسماء رمضان

الحمد لله رب العالمين، الذي جعل لدينه مناراً في كل عصر ومصر، وجعل العلم بمكنونات خلقه هو السبيل إلى الإيمان بوجوده، وجعل مقاليد العلم بذلك كله إلى سلطان العقل وحده، ليعلم الإنسان بذلك أن لا دين بغير علم، ولا علم من دون عقل...

والصلاة والسّلام على سيدنا محمد الأمين، الذي أخبر بمزية الفقه والفقهاء من أمته على امتداد الدهر، فقال وقوله الحق المبين: (**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين**).. والرضوان عن سادتنا وقادتنا أصحابه الغر الميامين، وعن التابعين بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: فإن الإسلام عقيدة وشريعة، وآداب وأخلاق؛ يشكّل في مجموعه كلاً متكاملاً، وتصوراً شاملاً للحياة الإنسانية، أثبت قدرته على استيعاب المستجدات والأفكار والحضارات، وإعادة صياغتها، وتنزيل حكم الله عليها.

– وإن أول ما نزل من آيات القرآن الكريم على النبي ﷺ هو قوله تعالى: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾ [العلق:1]

قوله تعالى (اقرأ) هو تنويهاً لأهمية العلم وقدره وأهمية الأخذ به.. إذ أنّ العلم هو السّلعة القابلة للاستيراد والتصدير في نطاق العالم كله، ولا ينبغي –لهذه السلعة– أن تتعثر في طريقها بدين أو مبدأ أو مصلحة أو تقليد..

قال تعالى: ﴿**شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [آل عمران:18]

فلقد بدأ الله سبحانه وتعالى بنفسه، وثنى بالملائكة، وثلث بأهل العلم وناهيكم بهذا شرفاً وفضلاً..

– وإن للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمائة درجة، ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام.

– وفي الحديث عن النبي ﷺ: (**الإيمان عريان، ولباسه التقوى، وزينته الحياء، وثمرته العلم**)..

– وقال عليه الصّلاة والسلام: (**أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد؛ أما أهل العلم فدَلُّوا الناس على ما جاءت به الرسل وأما أهل الجهاد فجاهدوا بأسيافهم على ما جاءت به الرسل**)..

– ولقد ذكر النبي ﷺ رجلان أحدهما عابد والآخر عالم.. فقال رسول ﷺ: (**فضل العلم على العابد كفضلي على أدناكم**) ثم قال: (**إن الله وملائكته، وأهل السموات والأرض حتى النملة في حجرها، وحتى الحوت ليصلون على معلمي الناس الخير**) فجعل العلم مقارناً لدرجة النبوة، وحطّ من رتبة العمل المجرد عن العلم ولفقيد واحد أشد على الشيطان من ألف عابد)..

– وعن صفوان بن عسّال رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (**إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضىً بما يطلب**)..

وقال ﷺ: (**يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء**).. فأعظِم بمرتبة هي تلو النُّبوَّة وحيث يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء فيرجح مداد العلماء على دم الشهداء..

– فقد قال ابن مسعود رضي الله عنه: "عليكم بالعلم قبل أن يرفع، ورفعه موت رواته، فو الذي نفسي بيده ليودُّن رجال قتلوا في سبيل الله شهداء أن يبعثهم الله علماء لما يرون من كرامتهم؛ فإن أحداً لم يولد عالماً، وإنما العلم بالتعلُّم"..

– وفي فضل العلم على العبادة يقول ابن عبّاس رضي الله عنه: "تذاكر العلم بعض ليلة أحب إليَّ من إحيائها..»..

– وقال فتح الموصلي رحمه الله تعالى: "أليس المريض إذا مُنع الطعام والشراب والدواء يموت؟ قالوا: بلى.. قال: كذلك القلب إذا مُنع عنه العلم والحكمة ثلاثة أيام يموت»..

ولقد صدق فإن غذاء القلب العلم والحكمة وبهما حياته، كما أنّ غذاء الجسد الطعام.. ومن فقد العلم فقلبه مريض وموته لازم ولكنه لا يشعر به..؛ إذ حب الدنيا وشغله بها أبطل إحساسه، كما أن غلبة الدواء قد تبطل ألم الجراح في الحال وإن كان واقعاً، فإذا حطّ الموت عنه أعباء الدنيا أحسّ بهلاكه وتحسَّر تحسُّراً عظيماً.. ثم لا ينفع كإحساس الأمن خوفه بما أصابه من الجراحات في حال الخوف.. فنعوذ بالله من يوم كشف الغِطَاء فإن الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا.

وقد حث النبي ﷺ على طلب العلم فقال: (**طلب العلم فريضة على كل مسلم**)..

فالمراد بطلب العلم: الذي هو **فرض عين** (ما يتعين وجوبه على الشخص حال التكليف).. فأما **فرض الكفاية**: فهو كل علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا؛ كالطب: إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان على الصحّة، والحساب: فإنه ضروري في قسمة المواريث والوصايا وغيرها..

بهذه العلوم لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج أهل البلد، وإذا قام بها البعض كفى وسقط الفرض على الباقين..

وقد يكون بعض العلوم **مباحاً**: كالعلم بالأشعار التي فيها سخف.. وقد يكون بعضها **مذموماً**: كعلم السحر والطلسمات...

فأما العلوم الشرعية فكلها محمودة.. وقد قال معاذ بن جبل مرفوعاً: "تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عِبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، وهو الأنيس في الوحدة، والصاحب في الخلوة، والدليل على الدين، والصبر على السراء والضراء، والوزير عند الأخلاء، والقريب عند الغرباء, ومنار سبيل الجنة، يرفع الله به أقوماً فيجعلهم في أقوامهم قادة سادة هداة، يُقتدى بهم، أدلة في الخير، تقتصّ آثارهم وترمق أفعالهم، وترغب الملائكة في خلّتهم، وبأجنحتها تمسحهم، وكل رطب ويابس لهم يستغفر حتى حيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه، والسماء ونجومها..".

- قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء36]

فالعلم أساس كل سلوك واعتقاد.. وفي هذه الآية الكريمة ينهى الله عز وجل نهياً صريحاً قاطعاً عن اتباع ما لم يتوفر الدليل العلمي الثابت على أحقيته وثبوته سواء فيما يتعلق بالاعتقاد أو السلوك.. وهذا النهي بذاته يتضمّن بطبيعة الحال الأمر باتخاذ العلم وسبيله ميزاناً لكل ما يتعلق بأمور الحياة..

- والعلم هو إدراك الشيء على ما هو عليه في الواقع؛ سواء أكان ذلك الشيء من المحسوسات أو المغيّبات، فلا جرم أن الظنون والفرضيات والنظريات لا تعتبر علماً، وإنما هي طريق إلى العلم لم يتم بعد؛ فلا بد من اجتيازه...

– ولكن ما الحكمة من هذا الأمر؟ وماذا يضير الإنسان أن يغمض عينيه وفكره عن معرفة الحقائق، ثم يسير في فجاج الحياة كيفما اتفق؟

والجواب: أن هذا الحكم الإلهي مرتبط ارتباطاً وثيقاً بحكم أساسيّ مثله وهو وجوب الإيمان بالله تعالى، وإقامة منهج الحياة طبقاً لشرعه وأحكامه...

وليس من سبيل لإقامة الإيمان وتوابعه في القلب إلا سبيل العلم والإدراك اليقيني، وليس من آفة أخطر على الإيمان بالله تعالى من الابتعاد عن المنهج العلمي، والتعرُّض للظنون والأوهام والفرضيات وأسبابها ثم الوقوف عندها.

فالعلم ليس خصماً للإيمان ولا ضداً له، بل هو دليل يهدي إليه.. وإن كثيراً من العلماء الراسخين هداهم علمهم إلى أن وراء هذا الكون قوة عليا تدبره وتنظمه، وترعى كل شيء فيه بميزان وحساب ومقدار..

ذلك أن العالم أقدر من الأميّ على استبانة ما في هذا الكون من ترابط وتناسق.. ولا عجب أن قرأنا لكثير من علماء الكون (في الطبيعة والفلك والرياضيات والأحياء وغيرها) شهادات ناصعة اعترفوا فيها بوجود الله، وصحة الدين، وهي شهادات تقطع ألسنة الذين يريدون أن يتخذوا من العلم سلاحاً يحاربون به الدين...

وما ألحد الملحدون في ذات الله تعالى إلا لأنهم أقاموا الظنون والنظريات في عقولهم مقام اليقين والعلم، ثم وقفوا عندها ولم يتجاوزوها.. وما استقر الإيمان بالله تعالى في أفئدة المؤمنين الصادقين إلا لأنهم لم يرفضوا بالعلم اليقيني بديلاً أولئك هم الذين وصفهم الله تعالى بقوله: هذه حكمة..

وحكمة أخرى من وراء وجوب اتباع سبيل العلم هي أنّ من شأن الإنسان أن ينقاد في حياته لمؤثرات مختلفة كلها من قبيل الهجيس والأوهام، وتأتيه هذه المؤثرات عادةً من الظروف التي تحيط به والبيئة التي يعيش فيها...

وذلك كهذا الذي ينتاب الإنسان من ردود الفعل، وعقد النفس، ودوافع العصبية، والانتصارات للذات، والسير مع الأهواء.

ومن المعلوم أنّ أكثر ما يُسيِّر الناس في فجاج الحياة الفكرية والعملية، هذه الدوافع المختلفة التي تعصف بهذه البيئة والظروف ومُلابسات الأحوال.. والذي يذهب ضحية ذلك كله إنما هو سلامة العقل وحرية الفكر...

* يتضايق الإنسان نفسياً من رجل من الناس فيحمِّل عقله بسبب ذلك حِملاً على استنكار ما يقوله ويدعو إليه..

وينتاب الرجل عقدة نقص لأسباب طارئة في حياته فيذهب في التأثر بعقدة نقصه مذهباً يخاصم فيه العقل وأحكامه..

وتطوف لإنسان آخر عصبية؛ فيمضي في الانتصار لعَصَبِيَّته إلى نهاية يصم فيها أذنيه عن نداء الحق وعلمه..!

وهذا من أخطر مظاهر العبودية التي قد يكون الإنسان حبيساً في أغلالها؛ إذ تُشل عنده فاعلية العقل، وتصبح قواه الفكرية تابعة في ضراعة وذل لظروفه ومشاكله.

– فما هو السبيل الذي هيأه الله للإنسان كي يتخلص من رقبة هذه العبودية؟.. السبيل أن يصحوا دائماً إلى ميزان العلم ويستنجد لذلك، وينمي مداركه العلمية، ويوسع أمامه من آفاقها، فإن سلطان تلك المؤثرات النفسية يتقلّص ويخبو ما قد يكون له من ضياء أمام نور العلم، وسراجه المتقد..

ولا تعود الظروف والبيئات عذراً لأولئك الذي يحبون أن يتمسكوا بها.. ولا شك أن أكثر الناس تأثراً بالأوهام أبعدهم عن ساحة البحث ونظره.. وأبعدهم عن أسر هذه الأوهام أكثرهم تماشياً مع العقل والعلم الخالصين دون استغلالهما من أجل غرضٍ نفسيٍّ دفين..

– والأدلة الواردة في فضل التعلم كثيرة:

قال تعالى: ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل43].

– وقال عليه الصّلاة والسلام: (**من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحي به الإسلام فبينه وبين الأنبياء في الجنة درجة واحدة**).

– وعن عطاء قال: "مجلس علم يكفر سبعين من مجالس اللهو.."

– وقال أبو الدرداء ﷺ: "من رأى أن الغدو إلى طلب العلم ليس بجهاد فقد نقص في رأيه ".

– وقيل: "أول العلم الصمت.. ثم الاستماع.. ثم الحفظ.. ثم العمل.. ثم نشره" إذ لابد لمن يتعلم شيئاً أن يعلمه لغيره ولا يكتمه.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**من عَلِمَ علماً فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار**)

قال تعالى في وجوب التعليم: ﴿**وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ**﴾ [آل عمران187] فأوجب التكليف... وقال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ فصلت33]

وإن الله تعالى ما آتى عالماً علماً إلا وأخذ عليه من الميثاق ما أخذ على النبيين أن يبينوه للناس ولا يكتموه... وقال ﷺ: (**الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ذكر الله سبحانه وما والاه أو معلماً أو متعلماً..**).

– فالعلم فضيلة في ذاته: وإذا نظرنا إليه بهذا الاعتبار وجدناه لذيذاً في نفسه، مطلوباً لذاته، وسيلة إلى الدار الآخرة وسعادتها، وذريعة إلى القرب من الله تعالى، ولا يتوصَّل إليه إلا به، وأعظم الأشياء رتبة في حق الآدمي السعادة الأبدية، وأفضل الأشياء ما هو وسيلة إليها، ولن يتوصل إليها إلا بالعلم والعمل ولا يتوصل إلى العمل إلا بالعلم بكيفية العمل.. فأصل السّعادة في الدنيا والآخرة هو العلم فهو إذن أفضل الأعمال.. وكيف لا؟

وقد تعرف فضيلة الشيء أيضاً بشرف ثمرته:

إذ أن ثمرة العلم: حسن الخلق والقرب من الله رب العالمين والالتحاق بأفق الملائكة، ومقارنة الملأ الأعلى.. هذا في الآخرة..

أما في الدنيا: فالعز والوقار ونفوذ الحكم على الملوك، ولزوم الاحترام في الطباع؛ حتى إن أغبياء الترك، وأجلاف العرب يصادفون طباعهم مجبولة على التوقير لشيوخهم لاختصاصهم بمزيد علم مستفاد من التجربة؛ بل البهيمة بطبعها توقر الإنسان لشعورها بتميز الإنسان بكمال مجاوز لدرجتها هذه فضيلة العلم مطلقاً..

ثم تختلف العلوم وتتفاوت فضائلها بتفاوتها لا محالة.. قال ﷺ: (**إنما العلم آية محكمة وسنّة قائمة، أو فريضة عادلة..**).

– وسئل سعد بن إبراهيم الزهري رحمه الله تعالى: أي أهل المدينة أفقه؟ فقال: أتقاهم لله تعالى، فكأنه أشار إلى ثمرة الفقه والتقوى ثمرة العلم..

– وإن العلماء ثلاثة:

إما مهلك نفسه وغيره وهم المصرحون بطلب الدنيا والمقبلون عليها..

وإما مسعد نفسه وغيره وهم الداعون الخلق إلى الله سبحانه ظاهراً وباطناً..

وإما مهلك نفسه مسعدٌ غيره وهو الذي يدعو إلى للآخرة وقد رفض الدنيا في ظاهره وقصد في الباطن قبول الخلق وإقامة الجاه.. وإن الله تعالى لا يقبل إلا ما خلص لوجهه الكريم من العلم.

– إذن: فميادين التربية والتعليم هي نوع خاص من أنواع الدعوة إلى الله عز وجل وفرع عنها.. والمعلم قدوة في هذا الصدد.. وتقع عليه سلبية هامة إن هو أهمل كونه مثالاً وقدوة في حق طلابه وتلامذته.. هذا من جهة المعلم..

أما من جهة التلميذ: فعليه بادئ ذي بدء أن يفرغ قلبه من أن يقصد بعلمه غير مرضاة الله تعالى.. ويعلم أن العلم بدون عمل هو حجة على صاحبه.. ولا يقولنّ لماذا أخطّأ ولو من كافر.. فكيف بالعالم المؤمن؟!. وعليه أن يعلم أن لا عصمة بعد الأنبياء، ولكن تقوى من الله وتوفيق...

* ثم إن للمعلم والمتعلم آداباً كثيرة:

– أما المتعلِّم فمن آدابه:

1– تقديم طهارة النفس على رذائل الأخلاق؛ إذ العلم عبادة القلب وتربة الباطن، وكما لا تصح الصّلاة إلا بتطهير الظاهر عن الحدث والخبث فكذلك لا تصح عبادة الباطن وعمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارة.. قال ابن مسعود رضي الله عنه: "ليس العلم بكثرة الرواية، إنما العلم نور يقذف في القلب" وإنما العلم الخشية لقوله تعالى: **{إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ}** [فاطر:28], كأنه أشار إلى أخصّ ثمرات العلم..

2- أن يلتمس مجالس العلم، ولا يشغله عنها لهو ولا صديق، فيحرص على الحضور باكراً، ويقيد العلم بالكتابة، وأن يحفظ ما يتعلم ولا ينساه، ولا يستح من السؤال – فقد قيل لابن عباس: بمَ نلت هذا العلم؟ قال: "بِلسان سؤول، وقلب عقول".

وقال الشافعي:

العلم صيد والكتابة قيده	قيد صيودك بالحبال الواثقة

3- وأن يقلل من علائقه بالاشتغال بالدنيا..

4- أن لا يتكبر على العالم، ولا يتآمر عليه، ولا يقاطعه في كلامه، إذ لا يُنال العلم إلا بالتواضع وإلقاء السمع: **{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ}**[ق:37]

– قال الإمام علي كرم الله وجهه: "من حقّ العالم عليك أن تسلم على القوم عامة، وتخصُّه بالتحية.. وأن تجلس أمامه، ولا تشير عنده بيديك.. ولا تغمز بعينك غيره.. ولا تقولن قال فلان خلاف قوله.. ولا تغتابنّ عنده أحداً.. ولا تطلب عثرته.. وإن أخطأ قبلت معذرته.. وعليك أن توقره لله تعالى.. وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته.. ولا تساور أحداً في مجلسه.. ولا تلح عليه إذ ملّ.. ولا تشبع من طول صحبته؛ فإنما هو كالنخلة تنتظر متى يسقط عليك منها شيء..".

5- أن لا يدع طالب العلم فناً من العلوم المحمودة، ولا نوعاً إلا وينظر فيه؛ يطلع به على مقصده وغايته، فإن العلوم متعاونة مرتبطة ببعض.. ولكن لا يخوض في فنون العلم دفعة واحدة بل يراعي الترتيب والأهم.. وعلى الجملة فأشرف العلوم وغايتها معرفة الله عز وجل؛ وهو بحر لا يدرك منتهى غوره..

6- أن لا يحكم على علم بالفساد لوقوع الخلف بين أصحابه فيه: كاعتقادك بطلان الطب لخطأ شاهدته من طبيب.. واعتقادك صحة النجوم لصواب اتفق لواحد..

7- أن يعرف السبب الذي به يدرك أشرف العلوم، وأن ذلك يراد به شيئان:

أحدهما: شرف الثمرة..

والثاني: وثاقة الدليل..

وذلك كعلم الدين.. وعلم الطب، فإن ثمرة أحدهما الحياة الأبدية وثمرة الآخر: الحياة الفانية، فيكون علم الدين أشرف وهو العلم بالله عز وجل..

8- أن يكون قصد المتعلِّم في الحال: تحلية باطنه، وتجميله بالفضيلة، وفي المآل: القرب من الله عز وجل، ولا يقصد به الرياسة والمال ومجاراة السفهاء ومباراة الأقران..

- وأما الإنسان المعلِّم فأشرف أحواله حين عَلِمَ وعمل وعلّم إذ هو حينئذ كالشمس تضيء لغيرها وهي مضيئة في نفسها: من يَعْلم ولا يعمل فهو كذبالة المصباح تضيء لغيرها وهي تحترق.. وكالدفتر الذي يفيد غيره وهو خالٍ من العلم...

وأما من اشتغل بالتعليم فقد تقلّد أمراً عظيماً فليحفظ آدابه ووظائفه وهي:

1- الشفقة على المتعلمين، وأن يجريهم مجرى بنيه.. قال رسول الله ﷺ: (**إنما أنا لكم مثل الوالد لولده**) بأن يقصد الوقاية من نار الآخرة، وهو أهم من إنقاذ الوالدين ولدهما من نار الدنيا.. وكما أن حق أبناء الرجل الواحد أن يتحابوا ويتعاونوا على الخير، فكذلك حق تلامذة المعلم الواحد التحاب والتوادد، ولا يكون إلا كذلك إن كان مقصدهم الآخرة.. ولا يكون إلا التحاسد والتبادل إن كان مقصدهم الدنيا...

2- أن يقتدي بصاحب الشرع عليه الصّلاة والسّلام فلا يرى لنفسه منةً عليهم، ولا يطلب على إفادة العلم أجراً ولا جزاءً ولا شكر بل يُعلِّم لوجه الله تعالى..، ولا يدع من نصح المتعلم شيئاً..

3- وهي من دقائق صناعة التعليم: أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن ولا يصرّح، وبطريق الرحمة لا التوبيخ، فإن التصريح يهتك حجاب الهيئة، ويُورِّث الجرأة على الهجوم بالخلاف، ويهيج الحرص على الإصرار؛ إذ قال عليه الصلاة والسلام وهو مرشد كل مُسلِّم: (**لو منع الناس عن فتِّ البعر لفتُّوه، وقالوا ما نهينا عنه إلا وفيه شيء**)..

4- أن المتكفّل ببعض العلوم ينبغي أن لا يقبّح في نفس المتعلِّم العلوم التي وراءه: كمعلِّم اللغة عادته تقبيح الفقه، ومعلم عادته تقبيح مادة أخرى وهكذا.. فهذه أخلاق مذمومة للمعلمين؛ بل المتكفل بعلم من العلوم عليه أن يوسِّع على المتعلمين طريق التعلم في غير علمه فيراعي التدريج في ترقية المتعلّم من رتبة إلى أخرى..

5- أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقي إليه ما لا يبلغه علقه فينفره. اقتداء بذلك النبي ﷺ حيث قال: (**نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم، ونكلمهم على قدر عقولهم..**) فليبث إليه الحقيقة إذا علم أنه يستقل بفهمها..

6- أن يكون المعلم عاملاً بعلمه فلا يكذب قوله فعله، لأن العلم يدرك بالبصائر، والعمل يدرك بالأبصار.. فإذا خالف العمل القول مُنِع الرشد إذ لا يستوي الظل والعود أعوج ﴿**أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ**﴾[البقرة:44].

- وروى مكحول بن عبد الرحمن قال: حدثني عشرة من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: كنا ندرس العلم في مسجد قباء إذ خرج رسول الله ﷺ فقال: (**تعلموا ما شئتم أن تعلّموا فلن يأجركم الله حتى تعملوا**).

* ومن نماذج التنظيم في ميادين التربية والتعليم:

- طلاب علم ما إن تعلّموا فكرة أو معلومة في دين الله، أو درسوا كتاب فقه حتى يتصدرون للفتيا والوعظ، وظنوا بذلك أنهم ملكوا العلم وهم في الحقيقة يستجيبون لشهوة الكلام بين جوانحهم..

- ومنهم طلاب علم يتسابقون في وضع المسائل الفقهية أو العقلية ليتباروا بها؛ ويعرض كل منهم إمكاناته تجاه أخيه وصاحبه، متناسين بأن العلم وسيلة لغاية عظمى ألا وهي مرضاة الله عز وجل، وتطبيق هذا الذي تعلموه، وليس بالجدل والمباهاة..

- ومنهم أساتذة ومعلمون يظنون أنهم قد تفضلوا على التلاميذ والطلاب بما يعلمونهم، وظنوا أن على التلاميذ أن يبجلوهم ويفسحوا لهم الطريق.. ويتأدبوا بحضرتهم ويقدسوهم؛ ورغم أن من الواجب على التلميذ أن يحترم ويقدر معلمه، إلا أن ذلك الشيء الذي يطلبه المعلم لنفسه قدراً شيء آخر؛ بل الله قد امتنّ على طالب العلم سواء كان معلماً أم متعلماً بأن استخدمه في ذلك ولم يستخدمه في شيء آخر.

- ومنهم أناس غرقوا في العلم حتى صار دينهم ظانّين أن علمهم وحده ينجيهم، وتكاسلوا وتقاعسوا عن العمل بمقتضى هذا، وسهروا وتقاعسوا عن صلاة الغداة، وتقاعسوا عن الجماعات.. وعلى الحقيقة: فليست الفضائل الكاملة إلا الجمع بين العلم والعمل فإذا حصلا رفعا صاحبهما إلى المقام الأسمى، فتلك

الغاية الأسمى؛ على قدر أهل العزم تأتي العزائم، فينبغي أن تسموهم إلى الكمال، فإن خلقاً وقفوا مع الزهد، وخلقاً تشاغلوا بالعلم، وندر أقوام جمعوا بين العلم الكامل، والعمل الكامل.

– ومنهم أناس يشعرون وكأن الخدش بحقوقهم وكرامتهم يعني الخدش في دين الله الحنيف.. وإن كان واحدهم ليهون عليه كل شيء في الدين يطلع عليه الخلق، ولا تهون عليه شخصيته الدينية زاعماً بذلك أنه ينتصر لدين الله..

* ولقد قسّم الإمام الغزالي العلماء إلى صنفين:

وهم علماء السوء.. وعلماء الآخرة..؛ حيث بينهما علامات فارقة:

– فعلماء السوء هم الذين قصدهم من العلم التنعم بالدنيا، والتوصل إلى المنزلة عند أهلها.. قال ﷺ: (**من تعلم العلم ليباهي به العلماء، أو يصرف به وجوه الناس إليه، فهو في النار**) /رواه الترمذي/..

هذا ومما يدل على عظم العلم أن رجلاً قال لأبي هريرة رضي الله عنه: أريد أن أتعلّم العلم وأخاف أن أضيّعه فقال: "كفى بترك العلم إضاعةً له".

– وقال سفيان الثوري: "يهتف العلم للرجل فإن أجاب وإلا ارتحل".

ولقد جعل الله اليهود شراً من النصارى مع أنهم جعلوا لله سبحانه ولداً ولا قالوا: إنه ثالث ثلاثة إلا أنهم أنكروا بعد المعرفة إذ قال الله تعالى: ﴿**وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ [البقرة:89].

وكذلك العالم الفاجر. فهذه الأخبار تبين أن العالم الذي هو من أبناء الدنيا أخس حالاً، وأشد عذاباً من الجاهل..

وأن الفائزين هم علماء الآخرة فمن المأخوذ على العالم أن يقوم بالأوامر والنواهي، وليس عليه أن يكون زاهداً ولا معرضاً عن المباحات، إلا أنه ينبغي له الابتعاد عن الدنيا مهما استطاع.

حيث من صفات علماء الآخرة: أن يعلموا أن الدنيا حقيرة، وأن الآخرة شريفة، وأنهما كالضرتين، فهم يريدون الآخرة، ولا تخالف أفعالهم أقوالهم، ويكون ميلهم إلى العلم النافع في الآخرة، ويجتنبون العلوم

التي يقل نفعها إيثاراً لما يكثر نفعه، وألا يتسرعوا في الفتوى، وألّا يفتوا إلا بما يتيقنون صحته.. وفي الخبر: "العلم ثلاثة: كتاب ناطق، وسنة قائمة، ولا أدري، فلم يزل السكوت دأب أهل العلم إلا عند الضرورة.. وأن يكونوا منقبضين عن السلاطين، محترزين عن مخالطتهم..

– قال كعب رحمه الله تعالى: "يكون في آخر الزمان علماء يزهِّدون الناس في الدنيا ولا يزهدون، ويخوِّفون الناس ولا يخافون، ينهون الناس عن غشاية الولاة ويأتونهم، ويؤثرون الدنيا على الآخرة يأكلون بألسنتهم، يقرِّبون الأغنياء دون الفقراء، يتغايرون على الأتباع كما تتغاير النساء على الرجال، يغضب أحدهم على جليسه إذا جالس غيره، أولئك الجبارون أعداء الرحمن".

– وقال رسول الله ﷺ: (**العلماء أمناء الرسل على عباد الله تعالى ما لم يخالطوا السلاطين، فإن فعلوا ذلك فقد خانوا الرسل واعتزلوهم**)...

إذ لا يزال الشيطان يلقي في روع العالم؛ أن في وعظك للسلاطين ودخولك عليهم ما يزجرهم عن الظلم ويقيم شعائر الله إلى أن يخيّل إليه أنه الدخول عليهم من الدين، ثم إذا دخل لم يلبث أن يتلطف في الكلام ويداهن ويخوض في الثناء والإطراء.

– وخلاصة رأي الشيخ ملا رمضان رحمه الله تعالى في هذه المسألة:

أن السعي إلى مواصلتهم ابتغاء الحصول على مغنم دنيوي أياً كان مذموم وممقوت.. وإن جاء ذلك مقنّعاً بصورة الدعوة إلى الله، أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..

أما الاتصال بهم لنصحهم وتذكيرهم مع الزهد في دنياهم، والترفع عن أعطياتهم فجائز ومبرور، ويستشهد في ذلك بحال كثير من العلماء الربانيين في العصر الأموي والعباسي وأن الإمام أو الحاكم إذا استدعى أياً من الناس إلى مجلسه أو ملاقاته، وجبت الاستجابة، وعليه أن يلتزم في استجابته بآداب الإسلام ومنهجه.

وكان يقرر ما انعقد عليه اتفاق جماهير العلماء.. ودلّ عليه صريح الحديث الصحيح من أن الخروج على الإمام مُحرَّم في كل الأحوال؛ ومن فعله تلبّس بكفر بواح..،

فكان رحمه الله: يرى ضرورة نصح الحاكم ما أمكن، وكان يعتقد أنها من أجلّ القربات إلى الله تعالى؛ على أن تكون خالية عن شوائب الطمع في مغنم، أو الفرار من مغرم، وأن تكون في غاية الحكمة واللين..

– ثم من صفات علماء الآخرة أيضاً ألّا يشتغلوا بدقائق الجدل والمناظرة من أجل علوم أهل هذا الزمان، ويزعمون أنه من أعظم القربات ومن ذلك: التلحين في الأذان والقرآن، ومن ذلك: التعسف في النظافة والوسوسة في الطهارة، وتقدير الأسباب البعيدة في الثياب مع التساهل في حل الأطعمة وتحريمها إلى نظائر ذلك...

وأن يكونوا كما قال سيدنا عمر ﷺ: "تعلموا العلم، وتعلموا للعلم السكينة والحلم، وتواضعوا لمن تتعلمون منه، وليتواضع لكم من يتعلم منكم، ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا يُقَوَّم علمكم بجهلكم..".

وقيل: "إذا جمع المعلم ثلاثاً تمت النعمة بها على المتعلِّم: الصبر والتواضع وحسن الخلق.. وإذا جمع المتعلِّم ثلاثاً تمت النعمة بها عليه: العقل والأدب وحسن الفهم"..

– أين شباب وشابات هذا اليوم من طلب العلم..؟! بل أين هم من سؤال عبد الله بن أحمد بن حنبل أباه: هل ترى لطالب العلم يلزم رجلاً عنده علم فيكتب عنه؟ أو يرحل إلى المواضع التي فيها العلماء فيسمع منهم؟ قال: "يرحل، ويكتب عن الكوفيين، وأهل المدينة، ومكة، يشامُّ الناس، يسمع منهم"... ومن المؤسف: أنه قد انتشر في صفوف طلبة العلم اليوم: الكسل وغلب عليهم إيثار الراحة والدّعة على الجد والدأب، وصارت الرفاهية، وأنواع من الفضول مقصداً من مقاصد الحياة عندهم، المتع مطلباً من مطالبهم، فلم يبق لديهم وقت للدرس والتحصيل، وصارت حالهم تشبه حال من عناه الإمام أحمد بن فارس الرازي:

إذا كان يؤذيك حر المصيف	ويُبس الخريف وبرد الشتا
ويلهيك حسن زمان الربيع	فأخذك للعلم قل لي متى؟!

– وقد يخيل لبعضهم أن الأيام ستفرغ له في المستقبل من الشواغل وتصفو له من المكدِّرات والعوائق، وأنه سيكون فيها أفرغ من الماء ولكن على العكس: كلما كبرت السنّ، كبرت المسؤوليات، وزادت العلاقات، وضاقت الأوقات، ونقصت الطاقات.

– فعلى طالب العلم أن يراعي أفضل أوقات وأماكن الحفظ والعلم؛ فإن للحفظ ساعات ينبغي لمن أراد التحفظ أن يراعيها، أماكن ينبغي للمتحفّظ أن يلزمها.. وأجود الأوقات السَحَر.. وأحسن الظروف: الخلوة والبعد عن الناس والضوضاء عند دراسة وأن يكون سريع الكتابة، سريع القراءة، سريع المشي والأكل؛ فإن هذه الأوصاف تساعده على زيادة التزود من الشيوخ بأقل مدة من الزمن والعمر.. وأن يجعل لنفسه في بيته مكتبة إسلامية علمية يشب عليها وينهل منها فهي نافعة وإن كانت يسيرة.. وأن يتعلم القرآن الكريم واللغة العربية، فإن أتقن اللغة العربية بشكلٍ جيد وحفظ شيئاً من القرآن والحديث فلا بأس بإتقان لغة أجنبية سائدة (مع طلبه للعلم) وذلك لتكوين جيل مسلم يستطيع كشف خطط الأعداء ويأمن مكرهم وينقل العلوم المادية البحتة إلى المسلمين. وهذا ما فعله عليه السلام أول ما وصل المدينة المنورة مهاجراً من مكة، إذ أمر الصحابة بتعلم كتاب يهود واللغة السريانية فتعلمها زيد بن ثابت ﷺ في سبعة عشر يوماً..

– وقد اهتم النبي ﷺ بالعلم؛ فكان المسجد أول مدرسة جماعية منظمة عرفها العرب لتعليم الصغار والكبار، وللرجال والنساء, فكان لهذه المدرسة فرع ليلي ينام فيه من يأوي إليه من الفقراء كأهل الصفة، فيجمعون بين التعلم الديني والدنيوي حتى إذا أتقنوا أو وجدوا عملاً ذهبوا يطلبون الرزق،وبقوا يترددون إلى مدرستهم في النهار لطلب العلم وأداء العبادة..

وبقي المسجد يؤدي دور العبادة والعلم دون تمييز واضح بينهما، حتى كان عهد عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ﷺ، فنشأ في عصره إلى جانب المسجد، أو في بعض زواياه كتاتيب للأطفال يتعلمون فيها.. وهنا بدأ بعض التنظيم لتعليم الأطفال..، وكان يوم الجمعة يوم راحة أسبوعية استعداداً لصلاة الجمعة فاقترح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ أن يصرف الطلاب ظهر يوم الخميس ليستعدوا ليوم الجمعة، فكان نظاماً متّبعاً إلى يومنا هذا.

وكان هذا التعليم يقوم على جهود مؤسسات خاصة يقوم عليها أشخاص يديرونها بجهود شخصيّة، وقد يتعاطى بعضهم أجراً زهيداً من حياته لانشغاله بالتعليم عن طلب الرزق..

فأصبح تعليم الأطفال مهنة حرة ذات نظام لا مركزي يخضع لإشراف الدولة ومراقبتها بين الحين والآخر..

كان المسجد أو الغرف الملحقة به هو مكان هذه الكتاتيب في أول الأمر، وكان في المسجد حلقات علم توازي مستوى المرحلة الثانوية في عصرنا هذا، وكانت الدولة تغدق العطايا لبعض العلماء القائمين على هذه الحلقات...

واستمر ذلك إلى أن استقلت الدويلات عن الخلافة العباسية، فبدأ بعضها يبني مدارس للعلم، كل مدرسة تؤوي عشرات من طلاب العلم، وكان نظام هذه المدارس داخلياً خاصا على الانقطاع لطلب العلم، فكان في دمشق وحدها مثلاً زهاء ثلاثمائة مدرسة في سفح جبل قاسيون، ما تزال آثار كثير منها تشرف على بعض الحدائق العامة؛ هذا عدا عن المدارس التي كانت في قلب المدينة كالمدرسة الظاهرية التي بناها الملك الظاهر، والنوريّة التي بناها نور الدين زنكي..

وبقي التعليم في هذه المدارس حراً لا مركزياً من حيث المناهج والكتب والأساليب، مع ارتباطها مالياً التي تجري لها الجرايات، وتخصص لها الأوقاف والهبات دون تقيدها بنظام معين أو مناهج محدودة؛ ثقةً منها بالعلماء الأفذاذ الذين يديرونها ويغذونها بالعلم..

وبقي الأمر كذلك زهاء عشرة قرون حتى جاء الاستعمار الغربي إلى بلادنا فعمّ فيها نظام المدرسة الموحّدة والتعليم المركزي التابع لمركز العاصمة في البلاد، وللمستشارين الأجانب في الأقطار التي استعمرت عسكرياً، ويرى علماء التربية أنّ لهذه المدرسة آثار تربوية كثيرة..

ويرجع معظم الأسباب التي دعت إلى وجود المدرسة الحديثة بهذا الشكل الذي نراه اليوم إلى تغيير نظام الحياة فقد هيمنت الدولة على كل أمور الشعب، واعتبرت نفسها مسؤولة عن غذائه، وموارد رزقه، وثرواته، واتجاهاته السياسية، والاجتماعية، بالإضافة إلى أمنه واستقراره وتحقيق حرياته وكرامة أفراده، وكرامة الدولة نفسها تجاه الدول الأخرى، وهذه الأمور كلها تبنى على التربية والتعليم..

– هذه مجمل الأسباب السياسية والاجتماعية التي دعت الدولة إلى الأخذ بزمام التعليم، ووضع مناهجه ونظمه، وتهيئة مدارسه وتعليمه..

والحقيقة: لقد استطاع النشاط التعليمي والثقافي عن طريق المدارس العصرية والصحافة أن يترك في المسلمين — ولو من غير وعيٍ منهم — أثراً جعلهم يبدون في مظهرهم العام لا دينيين إلى حد بعيد، ولا ريب أنّ ذلك خاصةً هو اللب المثمر في كل ما تركت محاولات لحمل العالم الإسلامي على حضارته من آثار...

فالواقع: أن الإسلام كعقيدة وإن لم يفتقد إلا قليلاً من أهميته، وسلطانه، ولكن الإسلام كقوة مسيطرة على الحياة الاجتماعية قد فقد مكانه.. وخصوصاً لمن يرضى لنفسه من الآباء أن يبعث بابنه إلى مدراس تديرها جمعيات التبشير..

– من الذي يستطيع أن يهيئ لولده عيشاً راضياً، وينبته نباتاً حسناً فيعمد إليه وهو صافي الفطرة، فيلقيه في بيئة يتولّى فيها من لا يرقبون إلّاً ولا ذمة.. يبعث به إلى مدارس أسست لمحاربة الدين الحنيف..

– إن الذي يقذف بولده بين جدران هذه المدارس لا تكون جريمته أقل من جريمة أولئك الذين كانوا يقتلون أولادهم خشية إملاق..

قد ينال الطالب في هذه المدارس علماً.. ولكن ليس هذا العلم في جانب ما يخسره من دينه بالذي يثقل وزنه..

وفي الختام: يسعدني أن أنقل حديث الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي عن نفسه يحكي عناية والده ملا رمضان رحمه الله تعالى بالعلم الخالص لوجه الله فيقول:

"شرح الله صدر والدي في أن يلحق ابنه الوحيد الذي كان في السادسة عشرة من عمره بالمعهد الشرعي الذي كان يديره الشيخ حسن حنبكة الميداني رحمه الله تعالى..

ويبدو أنه تصور أنني راغب في أن أواصل دراستي في المدارس الرسمية كسائر أندادي الذين التحقوا بتلك المدارس؛ فأقبل إليّ ذات يوم قبل أن يمضي بي إلى شيوخ معهد التوجيه الإسلامي ينصحني، ويحدثني عن آماله التي يعلّقها عليّ؛ وقال لي فيما قال: (اعلم بنيّ أني لو عرفت أن الطريق الموصل إلى الله يكمن في كسح القمامة من الطرق لجعلت منك زبالاً، ولكني نظرت فوجدت الطريق الموصل إلى الله هو العلم به وبدينه؛ فمن أجل ذلك قررت أن أسلك بك هذا الطريق...).

ثم شدّد عليّ وأكّد كثيراً أن لا أجعل قصدي من دراسة العلم أيّ شهادة أو وظيفة.. وأخذ عليّ ما يشبه العهد أن أقتنع بأيّ رزق يسوقه الله وبأي عمل كريم يقيمني الله فيه.. رضيت متأثراً بكل ما قاله لي وأمرني به والدي رحمه الله تعالى".

– اللهم إنا نسألك إيماناً كاملاً، ويقيناً صادقاً، وعلماً نافعاً، وعملاً متقبلاً، ومردٍ غير مخزٍ ولا فاضح...

– اللهم أسعدنا بشهود وحدانيتك حتى لا نرى في الكون سواك، فلا نطمع إلا بمرضاتك، ولا نخشى إلا من سخطك.. والحمد لله رب العالمين...

المراجع:

- إحياء علوم الدين، للإمام الغزالي.
- مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة المقدسي.
- ترجمة ستة من فقهاء العالم الإسلامي، للأستاذ عبد الفتاح أبو غدة.
- قيمة الزمن عند العلماء، للأستاذ عبد الفتاح أو غدة.
- تجربة التربية الإسلامية في ميزان البحث، للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي.
- هذه مشكلاتنا، للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي.
- هذا والدي، للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي.
- من أسرار المنهج الرباني، للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي.
- الإسلام ومشكلات الشباب، للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي.
- أصول التربية الإسلامية، لمؤلفه عبد الرحمن النحلاوي.
- الإيمان والحياة، للدكتور يوسف القرضاوي.
- منهج التربية النبوية للطفل، لمؤلفه محمد نور سويد.